علاقة القصة بالشعر

القصة والشعر هما من أبرز الفنون الأدبية إذ يلفتان نظر الباحث في الأدب العربي القديم والحديث، فالمقصود بالقصة في الشعر هو "استخدام الشاعر الغنائي لبعض أدوات التعبير التي يستعيرها من فن آخر هو القصص دون أن يكون هدفه كتابة شعر قصصي"، فالنص الشعري ذو الأداء القصصي لا يقف هنا في مواجهة النص الروائي، ولا يحمل نظامه الخاص، إنما هو نص شعري غنائي يدخل في تشكيله بعض من عناصر القص فهو ليس رواية أو فناً قصصياً بل لا يتجاوز كونه نصاً شعرياً يتضمن تقنيات القص والحكي.

فثمة علاقة وثيقة بين القصة والشعر يمكن تلمسها في أكثر من جانب إذ تؤكد الدراسات المهتمة بهذا المجال، أن القص أول ما ظهر شعراً، وعليه تعود جذوره إلى أزمنة موغلة في القدم،اذ "ظهر القصص أول ما ظهر شعراً، لأن الشعر أسبق للوجود من النثر فسجله المصريون القدماء في معابدهم وطقوسهم الدينية، ثم اليونانيون في ملاحمهم الشعرية كالإلياذة والأوديسا"، ومما يذكر أن أولى القصص والأساطير البابلية اللاحقة قد نظمت وكتبت شعراً، ومن يتطرق إلى مفهوم الأداء القصصي في الشعر يعني توافر بعض جوانب القصة في بناء القصيدة الغنائية، ووجود بعض من قصة في الشعر وهذا ما نحن بصدده، وقد تتوافر هذه الجوانب بنسب متفاوتة من شاعر إلى آخر في قصائدهم الشعرية.

إن القصيدة الغنائية بكل مظاهرها القديمة والحديثة تتسع لكثير من العناصر الموضوعية والقصصية، فليس غريباً أن تتفتح هذه القصيدة على كثير من سمات الأجناس الأدبية، وتتصهر داخلها دون أن يؤثر ذلك في ارتباطها الأصلي بخصوصية الجنس الأدبي الأصلي، وعليه فإن القصيدة ذات الأداء القصصي مهما تعددت عناصر القصة فيها تظل جنساً واحداً كما عرفت في البدء جنس الشعر الغنائي.

ويرى د. جلال الخياط "أن الشعر يبدأ غنائياً مطلقاً، ثم غنائياً مقيداً بحدث ثم يميل إلى الحكاية والحبكة والسرد والروح القصصي والملحمي، ثم يقترب من الدراما عفوياً فتتولد فيه جذور تعد النواة الدرامية الأولى"

إنَّ حديثنا عن العلاقة بين الشعر والقصة يقودنا إلى بحث التداخل بين الذاتية والموضوعية، إذ لا يمكن للشاعر أن ينعزل بعمله عن ذاته، وهذا أمر واضح لا يقبل جدلاً، وهو تأكيد آخر على قوة العلاقة بين القصة والشعر، إذ لا يمكن أن يتخلى كل منهما عن بعض خصائصه، فمسألة الذاتية الموضوعية في الشعر العربي القديم كانت موضوع الباحثين ومدار اهتمامهم، إذ لا يوجد خلاف بينهم حول التعبير عن المشاعر الذاتية، وهذا ما أكده النقاد العرب القدماء

لقد أشار الدكتور علي عباس علوان لقضية الذاتي والموضوعي في الشعر الغنائي بنحو خاص، فوجدها قضية غامضة تماماً هذا إذا افترضنا جدلاً وجود مشكلة ذاتية تخص الشاعر وحده دون أن ترتبط بمؤثر خارجي، فلقد ناقش الدكتور مجموعة من آراء نقاد العرب والغربيين أيضاً، فتوصل إلى نتيجة مفادها "إن الذاتي في الشعر يشيء بالموضوعي، كما أن الموضوعي يدل على الذاتي ويتضمنه"

إن إمكانية الاستعانة بالقصص وإدخالها في أغراض الشعر العربي كان محور اختلاف العلماء والنقاد القدامى والمحدثين، فقد أشار حازم القرطاجني (ت684هـ) إذ يقول "وملاحظات الشعراء الأقاصيص والأخبار المستظرفة في أشعارهم ومناسبتهم بين تلك المعاني المتقدمة والمعاني المقاربة لزمان وجودهم والكائنة فيها التي يبنون عليها أشعارهم مما يحسن في صناعة الشعر"

وهناك من يؤكد وجود القصة داخل القصيدة الغنائية، وأن هذا الوجود يكسب العواطف الذاتية مظهراً موضوعياً، فضلاً عن تعزيز الوحدة العضوية والأفكار من التبعثر والتشتت بتعدد أبيات القصيدة في بعض الأحيان

إنَّ القصصية في الشعر مسألة اختلفت بشأنها الآراء إذ اعترض بعض المعاصرين على وجود مثل هذه البنية القصصية بوصفها بنية نثرية، وهي بذلك "تصبح لوناً من الشوائب وعدم النقاء الذي يصيب الشعر أحياناً، إنّها بقية من الكتابة النثرية التي تترسب فيه وتدل على أن السدود التي تقوم بينه وبين النثر ليست محكمة دائماً"، وهناك من النقاد من يذهب إلى أن "كل نص شعري هو حكاية أي رسالة تحكي صيرورة ذات"

لم يخل الشعر العربي منذ العصر الجاهلي من الأداء القصصي، فثمة قصائد يمكن أن تعد قصة مستقلة، يتطرق الشاعر إليها دون التقيد بالعناصر الفنية للقصيدة العربية، كما في قصص المغامرات والقصص الديني، ففي العصر الجاهلي كانت "أكثر المعلقات والقصائد الجاهلية لا تخلو من حادثة يقصها الشاعر"، ومن يقرأ أشعار امرئ القيس يجد فيها طابعاً سردياً تتمشى فيه الروح القصصية في معظم قصائده، وكثير ما يلجأ إلى الحوار كما في معلقته التي يروي لنا في مقطع منها ما وقع بينه وبين عنيزة في (يوم دارة جلجل) مصوراً كيف كان ينال منها، وكيف كانت تدل عليه، ناقلاً بعض ما جرى بينهما من حوار، فيقول.

ألا رب يـــوم لـــك مـــنهن صـــالح ولاســـيما يـــوم بـــدارة جلجـــل

ويـــوم عقـــرت للعـــذاري مطيتـــي فيـــا عجبـــاً مـــن رحلهـــا المتحمـــل

فظـــل العـــذاري يـــرتمين بلحمهـــا وشـــحم كهـــداب الـــدمقس المفتـــل

ويـــوم دخلـــت الخـــدر خـــدر عنيـــزة فقالـــت: لـــك الـــويلات! إنـــك مرجلـــي

تقـــول وقـــد مـــال الغبـــيط بنـــا معـــاً عقـــرت بعيـــري يـــا امـــرأ القـــيس فـــأنزل

فقلـــت لهـــا: ســـيري وأرخـــي زمامـــه ولا تبعـــديني مـــن جنـــاك المعلـــل

وهكذا يستمر الشاعر في نقل هذا الحوار الذي يعد عنصراً أساسيّاً من عناصر الأداء القصصي، ليضفي على قصصه الغرامية روحاً وظلالاً من الواقع المعاش، وقد نمّى هذا الأداء من بعده الأعشى الذي روى هو الآخر جانباً من مغامراته لاسيما مع محبوباته من المتزوجات، وقد كان الأداء القصصي في شعره هو نفسه المبثوث في معلقة امرئ القيس التي يروي فيها مغامراته مع الحبيبات وكيفية الوصول إليهن، ولم تقتصر قصائده على الجانب العاطفي بل تجاوزت ذلك لتشمل الجانب الاجتماعي في ذلك العصر. ، ثم تطور هذا الأداء حتى بلغ نضجه الفني على يد عمر بن أبي ربيعة في العصر الأموي، وفي العصر العباسي لم يختلف الأمر كثيراً، إذ ظل الشعر العربي أسير الغنائية لقرون طويلة، أما في العصر الحديث، فقد برزت أهمية نزوع الشعراء إلى أنماط جديدة ومبتكرة، نتيجة لسعة ثقافة الشاعر الحديث واطلاعه الواسع على الآداب الأجنبية (سواء أكان مباشراً أم عن طريق الترجمة) كل هذا ساعد على خلق وعي جديد عند الشاعر الحديث، وقد أدرك "أن الشعر إذا أريد له أن يتجدد ويخلد، فإن ذلك يتم بتجدد المضامين، إضافة إلى الأشكال، وربما أدرك الشاعر أيضاً أن من أهم السبل لإغناء الشعر هو إفادته من الفنون الأدبية الأخرى كالقصة والمسرح والرواية، حيث الحدث والمشكلة والأبطال والواقع"، وهذا ما نلمسه في النتاجات الشعرية للشعراء الرواد، وبهذا أصبح الشاعر الحديث مؤمناً بأن الأداء القصصي مرتبط بأكثر من وشيجة بالشعر.